## الفصل الأول:

# الأسرة المسلمة بين فوضى العلمانية ونظام الإسلام

**محمد خالد المعاني**[1]

**مقدمة:**

مع كثرة البحوث في مجال التغيّر الأسري بخاصة والتغيّر الاجتماعي بعامة إلا أن العلماء والباحثين ما زالوا مختلفين حول الأسباب الكامنة وراء هذا التغيّر، وقد تراكمت دراسات كثيرة في القرن العشرين تحاول فهم التغيّر الأسري في سياق التغيّر الاجتماعي الذي حدث بسبب الثورة الصناعية.[2]

لقد تسببت الثورة الصناعية منذ بزوغها حتى وصلت إلى مرحلة متقدمة -منذ اكتشاف الآلة البخارية- في نقل المجتمعات الغربية من مرحلة الاستقرار أو الثبات إلى مرحلة تغيّر دائم لا يتوقف، بل أخذ هذا التغيّر الاجتماعي يتسارع مع الزمن -خاصة مع ثورة تكنولوجيا الاتصال- في نهاية القرن العشرين حتى شمل العالم بأسره، وقد انبثق عن هذا التغيّر الاجتماعي بروز قوى الفردية المطلقة، مما تسبب في إحداث تغيّر كبير في البناء والتركيب الاجتماعي نتيجة لظهور قوى اجتماعية جديدة يمكن تصنيفها على النحو الآتي:[3]

---

(١) دكتوراه في الديموغرافيا الاجتماعية، تخصص العمل الاجتماعي، أستاذ مشارك في قسم العمل الاجتماعي بالجامعة الأردنية/ الأردن. البريد الإلكتروني: m.maani@ju.edu.jo

(2) Herbery, Blumer. *Industrialization and problems of social Disorder*, EBSCO Publishing, 2002

(3) Maani and et al. "Family change as response to the economic mechanism", unpublished articale, 2012.



obeikan.com

- **القوى الاقتصادية:**

• ظهور المصانع.

• ظهور نظام السوق.

• ظهور النقود بوصفها قوة مركزية من خلالها يمكن للفرد أن يعظّم منفعته.

• ظهور الرأسمالية الفردية.

- **قوى قيم الثقافة الفردية:**

• الاستقلال الفردي المطلق.

• المساواة المطلقة بين الجنسين.

• تعظيم المنفعة (تعظيم السعادة) الفردية.

• المنافسة الحادة في نظام السوق ونظام سوق العمل.

• هيمنة قيم الثقافة الاستهلاكية.

- **القوى الاجتماعية:**

• نظام الأحزاب.

• نظام النقابات.

• منظمات المجتمع المدني.

• تكنولوجيا الاتصال الجماهيري.

وفّرت ثورة تكنولوجيا الاتصال -التي تعاظمت مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين- ظروفاً لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، فتفاعُلِ القوى الصناعية والاجتماعية والثقافية مع بعضها بعضاً حيّرت العلماء والباحثين المعنيين في فهم ما هو السبب وما هو الأثر Cause-effect! ولقد



obeikan.com

حاولت دراسات هائلة في القرن العشرين فهم التغيّر الأسري في سياق التغيّر الاجتماعي الصناعي.[1] لكنّ تلك الدراسات أغفلت متغيّراً رئيساً في سبرها غور موضوع التغيّر الاجتماعي وعلاقته بالتغيّر الأسري، وهذا المتغيّر هو الإنسان، فالإنسان في فكره وسلوكه هو الذي أحدث التغيّر الاجتماعي والتغيّر الأسري، وهو الذي اخترع وابتكر، وهو الذي أحدث تغيّراً عميقاً في تركيب وبناء المجتمع والأسرة، وهو الذي من خلاله (فكراً وسلوكاً) تفاعل مع القوى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. إنه هو المتغيّر الذي غاب عن تلك البحوث والدراسات، وكان الأجدر أن يكون محور التحليل.

إن التفاعل المعقد ما بين القوى الاجتماعية والصناعية والثقافية هو أساس الإنسان في تفكيره وسلوكه. والإطار الذي من خلاله يتم هذا التفاعل هو العلمانية، بما هي إطار لثقافة المجتمعات الغربية التي أصبحت من ثوابت المجتمع، ولا يسمح بأن تكون موضوع تساؤل أو موضوع بحث. ومع اطّلاعي على عدد وافر من هذه البحوث وجدتُ أن هناك ابتعاداً لدى الباحثين في دراساتهم عن جادة الصواب. فقد كان الفرد -وهو المكون للأسرة والمجتمع- بعيداً عن التحليل من أجل فهم هذا التغيّر، ولذلك كثرت النظريات والمدارس الفكرية، ولم تصل إلى نتيجة تساعدنا على حفظ نظام الأسرة. والفرد في ظل العلمانية التي برزت في مطلع القرن التاسع عشر في فرنسا، ومن ثم انتشرت في أنحاء أوروبا كافة، ثم انتشرت في العالم بأسره، هو الذي تغيّر تغيّراً عميقاً في فكره وسلوكه.[2]

---

(1) Goode. *world Revolution and Family patterns*, second ed. Callier Macmillan publishers, London, 1970.
- Maani M. (1990) "Recent changes in Family structure and fertility in Jordan, unpublished thesis.

(2) Chard, Gaffield. *wage labor Industrialization and The Origins of the modern Family*, In The family: changing trends in Canada, ed Maureen Baker, 1984.

سوف أقوم في هذه الورقة بمناقشة تعريف العلمانية، ومن ثم تبيان أثرها في تفكير الفرد وسلوكه، وما تسببت به من فوضى، وبمناقشة دور الدّين الإسلامي في إعادة التنظيم لتفكير وسلوك الفرد والأسرة.

## أولاً: تعريف العلمانية

قد يكون هناك إجماع لدى غالبية الباحثين بأن العلمانية هي فصل الدّين عن الدولة. ولقد توسع المسيري[1] في ذلك وقسّم العلمانية إلى قسمين أو نوعين: النوع الأول، وهو العلمانية الجزئية، ويعني به: فصل الدّين عن الدولة. أما النوع الثاني فهو: العلمانية الشاملة، وتشير إلى رؤية شاملة للكون. وأستغرب هنا وصف المسيري لتعريف العلمانية الجزئية بالتعريف "الوردي القديم" الذي يوحي بالإيجابية. إنني أكاد أجزم بأن العلمانية منذ بزوغها في القرن التاسع عشر -نتيجة لصراع طويل ومرير ما بين سلطة الكنيسة والدولة- قد فتحت الباب لانحراف ما زلنا نجني ثماره المُرة والمؤلمة ونحن في القرن الواحد والعشرين. وأستغرب تصنيف المسيرة العلمانية إلى صنفين، صنف وكأنه "حميد" وصنف آخر "خبيث"! فالعلمانية نبتة خبيثة غُرست في القرن التاسع عشر وأخذت بالنمو المستمر إلى أن أصبحت في هذا القرن شجرة خبيثة كبيرة متشعبة تشعباً هائلاً، وضاربة جذوراً قوية في التاريخ الحديث. ولم أستطع أن أرى خطاً يفصل بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.

وعلى الرغم من أنني أختلف مع المسيري في طرحه لنوعين من العلمانية، إلا أنني أتفق معه في وصف العلمانية بأنها "عملية"، وهنا يمكن القول إن كلمة "عملية" تعني: أي عملية تفكير يتمخض عنها سلوك فرد. وسأوضح هذا في عناوين هذه الورقة لاحقاً، أما عندما نقول "عملية

(١) المسيري، عبد الوهاب. **بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، موقع الدكتور المسيري الإلكتروني.

علمانية" فهي تعني: أي فكر يتبعه فعل لفرد أو مجموعة أفراد (أسرة أو مجتمع) منفصلاً انفصالاً تاماً عن الدّين. وكما يرى المسيري، فالعلمانية ثمرة عمليات كثيرة متداخلة، وتتم هذه العمليات من خلال الدولة (رجال الدولة) ومن خلال مؤسسات المجتمع وأي تكوين اجتماعي مثل الأسرة. وبناءً على هذا الشرح وعندما نقول: دولة علمانية.. مؤسسة علمانية.. أسرة علمانية، فنحن نشير إلى أفراد يمارسون عمليات علمانية تنطوي على تفكير وسلوك. ويرى المسيري أن التصدي للعلمانية يتطلب استئصال الأفكار والممارسات كافة التي أشرنا إليها بالعملية العلمانية. ويجدر هنا ونحن نعرّف العلمانية أن نجيب عن السؤال التالي؟ هل العلمانية "إيديولوجيا"؟ لقد رأى المسيري أن العلمانية ليست "إيديولوجيا" وأنها ليست مجموعة من الأفكار. ولكني أجد أن العلمانية بوصفها عملية أصبحت نمطاً وإطاراً للتفكير راسخ الجذور، وأنها تعد جزءاً أساسياً من حضارة الغرب وثقافته، يلتزم بها ويدافع عنها. وانطلاقاً من هذا المفهوم- يمكن اعتبار العلمانية "إيديولوجيا".

## ثانياً: "ميكانيزم" تأثير العلمانية في الفرد

سوف أقوم بشرح كيفية تأثير العلمانية على الفرد من خلال استخدام نموذج طوّرتُه في دراسة سابقة،[1] بيّنت من خلاله مرجعية التفكير والسلوك لدى الفرد، وكيف أن هناك قاعدة سلوك واحدة في ظل هيمنة العلمانية بوصفها إطاراً ثقافياً للمجتمع.. إن استخدام مصطلح "هيمنة العلمانية" يشير إلى أن نظام القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية يتفاعل في المجتمع بعيداً عن تأثير الدّين؛ إذ لم يَعد الدّين في هذه المجتمعات مطبقاً بوصفه مصدراً للقيم على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع -كما سنرى من خلال

(1) Maani M. and M. Al-Arabi, An Ideational Theory of Fertility decline (1996) , In MUTAH, Vol.11,No. 5, PP247-265.

شرح النموذج- (انظر الشكل رقم ١)، وهنا يجدر التذكير بأن العلمانية ليست مجموعة أفكار -كما ذكر المسيري- ولكنها إطار لعملية تنشأ من خلالها القيم والأفكار وتتفاعل مع بعضها بعضاً بعيداً عن تأثير الدّين. وقد أدّى ذلك التفاعل إلى تطور أنماط من التفكير والسلوك الفردي المادي في المجتمعات الغربية، أخذ يتسع نطاقه في ظل ثورة تكنولوجيا الاتصال إلى بقية أنحاء العالم، بما فيها الدول العربية والإسلامية.

وأبرز ما تولّد عن هيمنة العلمانية هو بروز ما يسمى "بالفردية المطلقة" Absolute Individualism؛ أي لا يمكن أن يعيقها أي عائق. وتنطوي هذه الفردية على ثلاثة أبعاد هي:

**- استقلال الفرد المطلق:**

بمعنى أنه لا توجد أية قوة خارج إرادة هذا الفرد تستطيع أن تملي عليه كيف يفكر وكيف يَسْلُك. ومن الأمثلة على ذلك: أن الدّين يعدّ خارج إرادة هذا الفرد، وبذلك لا يستطيع الدّين أن يملي على هذا الفرد كيف يفكر ويسلك. ويجدر بالذكر هنا أن الفرد -وفق هذا المفهوم- لا يخضع إلا للقانون فقط.

**- تحقيق الذات المطلق:**

بمعنى حق الفرد المطلق بأن لا يواجه أية عوائق تقف أمامه أو تصده عن تنمية ذاته وتحقيقها، مدعماً باستقلال مطلق أيضاً.

**- الخصوصية المطلقة:**

بمعنى حق الفرد بأن يُتَرك وشأنه يفكر ويسلك دون أي تأثير من أحد.

وأمام هذه الفردية المطلقة بهذه الأبعاد الثلاثة تولّد ما يسمى "تعظيم المنفعة الفردية المطلقة"، التي أصبحت القيمة المحركة لتفكير الفرد

وسلوكه وتعني "تعظيم السعادة". ومع هيمنة تعظيم المنفعة في تفكير الفرد وسلوكه -ومن ثم مجموع الأفراد في المجتمع- أخذت قيم المجتمع الأساسية والثانوية تنشأ وتختفي وتتباين تبعاً لمدى ما يحققه الفرد أو مجموعة الأفراد من تعظيم لمنافعهم المادية. ويجدر التذكير هنا بأن "القيمة" هي قاعدة تحكم التفكير والسلوك الفردي، ويشار إليها بالإنجليزية بـ Standard of Behavior.

ويوضح الشكل رقم (١) علاقة القيم -سواء الأساسية أو الثانوية- بالأخلاق العامة باتجاه الأسهم الموجودة في الرسم. أما القيم الأساسية، فهي قيم لا تحتاج إلى تبرير، وهي ضاربة في جذور المجتمع ولا تتغير إلا في أزمان متباعدة، وأما القيم الثانوية، فهي قابلة للتغير السريع، وتغيرها يحتاج إلى تبرير. وأما فيما يتعلق بالأخلاق العامة فهي مجموعة القيم الأساسية التي على ضوئها يمكن للمجتمع أن يحكم على سلوك الفرد بالخطأ والصواب. وفي الوقت الذي كان فيه المجتمع ملتزماً بالدّين، وكان الدّين هو مصدر القيم، وهو الإطار الذي تتفاعل فيه جميع القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كانت القيم الثانوية تتبع أو تنضبط بالقيم الأساسية، ومثال ذلك: أن المجتمعات الإسلامية ترى في ممارسة الجنس من خلال مؤسسة الزواج قيمة أساسية لا تتبدل مع الزمن ولا تحتاج إلى تبرير، وتبعاً لذلك، فإن منع الاختلاط بين الجنسين (الذكر والأنثى) قيمة ثانوية لا يمكن الإخلال بها إلا بتبرير وشروط. أما في المجتمع الغربي وأجزاء كبيرة من المجتمعات في العالم، فإن القيمة الثانوية -في ظل العلمانية- تتولد انعكاساً لمصلحة الفرد أو مجموعة الأفراد، وتبعاً لذلك تتولد القيم الأساسية في المجتمع. ومن هنا، يمكن رؤية التباين في القيم تبعاً لتباين مجموعات من الأفراد مثل قيم الماركسيين والمثليين وعبدة الشيطان...، لقد نتج عن تباين القيم وتشرذمها بين مجموعات من الأفراد انحسارٌ في الأخلاق العامة Public Morality.

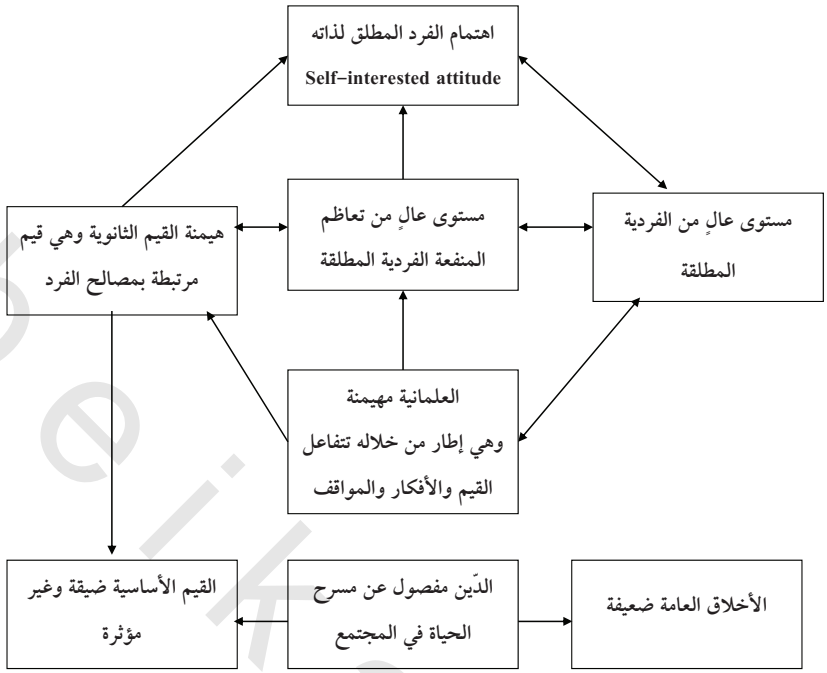


**الشكل رقم (١) نمط العمليات الثقافية في ظل هيمنة العلمانية على فكر الفرد وسلوكه**

لقد أدى تعظيم المنفعة الفردية إلى بروز فكرة العقلانية Rationality، التي من خلالها يمكن الحكم على السلوك بأنه عقلاني أو غير عقلاني، وقد بُنيت على ذلك نظرية العقلانية في الاقتصاد. إن فكرة العقلانية[1] تعني: التطابق ما بين قرار الفرد وفعله تجاه موضوع ما مع مصالحه الشخصية،"Conception of rationality emphasizes the consistency between a person's decisions and actions and this persons's objectives and self-interests". إن تعظيم المنفعة -وتعني بالنتيجة تعظيم السعادة- وارتباط العقلانية بمدى تحقيق مصلحة الفرد من أجل منفعته وسعادته، قد أجّج ميل الفرد إلى استخدام عاطفته على حساب عقله، ونتيجة لذلك، فإن عاطفة السعادة أخذت تسيطر

(1) Pham, Michef. (Tuan (2007), "Emotion and Rationality: A critical Review and Interpretation of Empirical evidence," In Review of General psychology, vol. 11 no. 2, pp.55-178.

على سلوك الفرد المعاصر. فالسعادة المادية ارتبطت بالسلوك الفردي المادي المستند إلى المصلحة الفردية المطلقة التي أنتجتها العلمانية. وقد نتج عن ذلك سلوك فردي غير منمَّط Unpatterned behavior، وتعني كلمة "Unpatterned"[1] سلوكاً غير متوقع ولا يمكن التنبؤ به ويستعصي على الدراسة والبحث، وهذا السلوك المبني على نحو كبير على العاطفة يصبح سلوكاً أكثر تطرفاً ويتصف بقصر النظر. ويجدر بالذكر أن الماوردي[2] في كتابه "دين ودنيا" في فصل "العقل والهوى" قد أشار إلى أن "الهوى" عندما يهيمن على سلوك الإنسان فإنه لا يسمح له بالتفكير وإعمال العقل -و"الهوى" هنا يشير إلى العاطفة-، ولذلك يبنى قرار الفرد على نحو عاطفي، سواء كانت العاطفة إيجابية أو سلبية مثل عاطفة السعادة أو الغضب. وفي هذا الصدد أشار كل من "ريس وجراي" Reis and Gray في دراستهما عن العاطفة[3] إلى ذات المعنى، بأنّ العاطفة تكون عادة مصحوبة بنشاط أوتوماتيكي يدعم السلوك الذي يظهر مع هذه العاطفة."Emotion are usually accompanied by autonomic activity that supports the action occurring alongside the emotion". ومن هنا، نلاحظ أن أصحاب الدعاية في ميدان التسويق للسِّلع يركزون في دعايتهم التسويقية على محاكاة العاطفة لدى الفرد، مستندين إلى بيان مصلحته العظمى في امتلاكه هذه السلعة، وقد نتج عن ذلك ما يسمى بثقافة الاستهلاك بسبب تحويل الفرد إلى غير قنوع Maximizer بدلاً من راضٍ Satisfizer بمعنى تحويله إلى شخص متطلب غير قنوع. ولذلك بدأت البحوث في علم النفس في دراسة هذا السلوك ورصده وبيان مدى ارتباطه بظاهرة الإحباط والاكتئاب.

(1) Lesthaeghe, Ron. "A century of demographic and cultural change in western Europe" in population and development review,1983, 9,3, PP.411-439.

(٢) الماوردي، أبو الحسن. **أدب الدّين والدنيا**، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨٥م.

(3) Jeremy, Gray, and Reis, Deidre. *Affect and action control*, 2ne ed, 2004.

وقد شرحت في بحث سابق[1] إشكالية النظريات الاقتصادية والاجتماعية وكيف أن التكنولوجيا تصبح محددة للتفضيلات الفردية Individual Preferences من خلال ما تُعرض له من فرص Opportunities في غياب تطبيق الدّين؛ إذ تتحول هذه التفضيلات إلى حاجات تصبح بالغة التشابك Treelike والتعقيد، وفي ظل غياب المرجع (الدّين) تزداد التفضيلات لدى الفرد وتتسع كلما توسعت التكنولوجيا وتقدمت، وفي هذه الحال يبقى الحد Threshold لدى الفرد آخذاً في الاتساع دون أن يتوقف، إلى أن يصبح الفرد غير قنوع Maximizer، غير قادر على التوقف عند حد في استهلاكه وإنفاقه، حتى يصل إلى حالة من الإحباط والاكتئاب. وقد وصف ابن خلدون في "مقدمته" في القرن الرابع عشر ذلك بقوله: "إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب، وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها، ويختار المهرة في صناعتها أو القيام عليها بقيمها، فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم. ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترف تبعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول، وكذا في الزيادة الثانية والثالثة؛ لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى، بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. وإن العصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمنا، وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات." [2] وقد اقتبست

(١) المعاني، محمد خالد. **إشكالية النظريات الاقتصادية والثقافية في ميدان الديموغرافيا**، عمّان: مجلة دراسات ( العلوم الإنسانية والاجتماعية بالجامعة الأردنية)، مج٢٥، عدد١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٥.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون: لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، القاهرة: مكتبة ومطبعة عبد الرحمن لنشر القرآن الكريم، ص٢٥٨-٢٦١.

في بحثي عن Pollak Watkins ما يفيد أن هناك تشويشاً لدى الباحثين -لا سيّما الاقتصاديين منهم- عند استخدامهم لمجموعة مصطلحات مختلفة بمعنى "تفضيلات"، وهذا الاقتباس هو:

"preferences/ التفضيلات"، "tastes/ الذوق"، "desires/ الرغبة"، "wants/ يريد"، "needs/ الحاجات"، "attitudes/ المواقف"، "aspirations/ الطموحات"، "goals/ الأهداف"، "values/ القيم"، "interests/ الاهتمامات"، and "ideology/ العقيدة الفكرية."

إن الفردية المطلقة التي ظهرت مع هيمنة العلمانية وما تمخض عنها من سلوك تعظيم المنفعة الفردي قد سمحت للتكنولوجيا وما توفره من فرص بجعل تفضيلات الإنسان Preferences متغيّراً وليس ثابتاً، ومن هنا، جاءت فكرة الثقافة الاستهلاكية، ووصف الإنسان الذي يقوم بتعظيم الاستهلاك بأنه Maximizer. إن التفضيل Preferences لدى الإنسان سلوك متغيّر تغيراً مطلقاً في ظل العلمانية، ولكنه سلوك متغيّر تغيّراً نسبياً بالنسبة لمن يطبق الدّين، ويمكن أن أعطي مثالاً على ذلك: فكلما وفرت المصانع (التكنولوجيا) خمراً أكثر لذة في الطعم يزداد تفضيلها والطلب عليها لدى الإنسان "العلماني"، بينما يكون التفضيل لدى الإنسان "الذي يطبق الدّين" صفراً؛ لأن الخمر حرام لدى المتدين المسلم. ومن هنا يمكن القول إن فكرة الحلال والحرام تهذب سلوك الإنسان التفضيلي، مهما قامت الصناعة والتكنولوجيا بطرح الفرص؛ لأن المسلم يقيِّم كل فرصة "تكنولوجية" بالحلال والحرام.

## ثالثاً: الفوضى التي أحدثتها العلمانية على مستوى الفرد والأسرة

الفوضى هي الاضطراب والتشويش الذي يحدث في النظام، سواء في بنائه أو نموه أو تفاعله داخلياً وخارجياً. فالنظام يمكن أن يكون مادياً مثل جهاز الحاسوب، ويمكن أن يكون نظاماً "بيولوجياً" مثل الإنسان، ويمكن أيضاً أن يكون النظام اجتماعياً مثل نظام الأسرة. وتشكل الفوضى عندما تصيب النظام حالة انحراف أو حالة مَرَضِية في بنائه أو نموه أو تفاعله تؤثر في أدائه لوظيفته. ومن هنا، يمكن

النظر إلى ما أحدثته العلمانية من فوضى على مستوى الفرد والأسرة.

**١- أثر الفوضى التي أحدثتها العلمانية على مستوى الفرد:**

الفرد (الإنسان) بوصفه نظاماً "بيولوجياً" -خلقه الله وركّبه في أحسن صورة- يتفاعل داخلياً (أي عناصر النظام) بمشيئة الله تعالى، وقد زوّد هذا النظام "البيولوجي" (الإنسان) بعقل ميّزه عن سائر الكائنات "البيولوجية" الأخرى، ليتسنى له التفاعل مع محيطه. فوظيفة العقل لدى الإنسان المساعدة على التفاعل مع ذاته ومع غيره ومع البيئة المحيطة به بطريقة تحقق له نجاحاً في أدائه لوظيفته بكونه مستخلفاً في الأرض. وقد أرسل الله لهذا الإنسان "الدّين" وما احتواه من قيم تضبط سلوكه في أدائه لوظيفته على مستوى ذاته وعلى مستوى تفاعله مع غيره لبناء الأسرة، وتفاعله الواسع في بنائه لمجتمعه. والدّين وما جاء به من منظومات قيمية تساعد الفرد ليكون فكره وسلوكه الاجتماعي والنفسي منظماً تنظيماً دقيقاً بخلاف العلمانية التي دفعت الفكر الإنساني على مستوى الفرد ليكون بلا ضوابط (مثل الحلال والحرام)، مما سهّل عليه الانحراف في تفكيره وسلوكه الاجتماعي.

وأول التشويش والاضطراب الذي أحدثته العلمانية على مستوى الفرد، هي أنها أربكت تفكيره حين جعلته يفصل الدّين عن الحياة، وقد أدى ذلك إلى ضعف قيم الدّين في توجيه التفكير ومن ثم السلوك. وهنا، يذكر المسيري أن العلمانية ليست فكراً ولا مجموعة أفكار بل هي دعوة لإبعاد الدّين بكونه مرجعية تضبط فكر الفرد وسلوكه، وترك هذا الفرد بأن يجتهد ويفكر ويسلك استناداً إلى هيمنة تعظم المنفعة أو السعادة الفردية ساعياً إلى تحقيق مصلحته الفردية. إن هذا الارتباك في التفكير جعل الإنسان يسأل: من أنا؟ ولماذا أنا موجود؟ وأخذت الأسئلة من هذا النوع تتوالى وتتشعب دون الوصول إلى إجابة، وقد تولّدت عن هذه الأسئلة نظريات ومنظومات أفكار جاء بها علماء الاجتماع. أما على مستوى عامة الناس، فلم يجدوا أمامهم إلا السعي لتعظيم السعادة أو المنفعة الفردية ضابطاً لسلوكهم في ظل فردية مطلقة، لا تراعي قيماً

سوى الالتزام بالقانون الوضعي الذي يضبط الناس وينظم حياتهم، ولم يجد المجتمع الغربي الآن في ظلّ ما يسميه "مجتمع ما بعد الحداثة" سوى قيم الحرية الفردية والمساواة بين الجنسين.

إن بزوغ العلمانية في أوروبا واتساع هيمنتها كان يسير جنباً إلى جانب مع بزوغ الثورة الصناعية واتساع نموها. وتسارع هيمنة العلمانية واتساعها مع تسارع التطور "التكنولوجي" جعل المفكرين الأوروبيين يظنون أن العلمانية هي السبب في التقدم الصناعي "التكنولوجي"، خصوصاً بعدما خبروه من ظلم سلطة الكنيسة ورجال الدّين. ولذلك، كان الصراع محتدماً بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة. وهذا التزامن بين بزوغ العلمانية وتطور الصناعة وتقدمها، جعل الباحثين في مجال التغيّر الاجتماعي يتهمون الثورة الصناعية بأنها هي التي أحدثت تصدعاً وعدم استقرار في النظام الاجتماعي التقليدي الذي كان سائداً آنذاك.[1] ولكن حين قام "ليسثاغ"[2] Lesthaeghe بفحص العلاقة بين النظام الثقافي والنظريات الاقتصادية وجد أن العلمانية هي المتهم في إحداث التغيّر الاجتماعي، ووجد أن العلمانية أثّرت في سلوك الفرد وجعلته سلوكاً غير متوقع Unpattrned. وكانت الحركة "البروتستنتينية" نتيجة لذلك. وقد جاءت النظرية الحديثة Modern Theory لتعزز ذلك أيضاً. وعلى هذا الأساس بني الاقتصاد الرأسمالي الغربي -على الفردية المطلقة- استناداً إلى مقولة آدم سميث (أبو الاقتصاد الحر): "دعه يعمل دعه يمر" بعيداً عن الدّين. وقد تم تسويق العلمانية إلى أنحاء المعمورة كافة.

وجاء التشويش والاضطراب في فكر الفرد بسبب الاعتقاد أن "العقل مطلق"، وأنه قادر على إيجاد الحلول لكل شيء وعلى مستويات الحياة كافة، وقد زاد من هذا الاتجاه ما رآه الإنسان الغربي من تقدم صناعي و"تكنولوجي" مذهل بسبب هذا العقل. فما ساعد عقل الإنسان على التقدم في ميدان التكنولوجيا هو النظام

(1) Herbery, *Industrialization and problems of social Disorder*.

(2) Ron, Lesthaeghe. *A century of demographic and cultural change in western Europe*, In Population and development review, 1983, 9,3,PP 411–439.

الفيزيائي الذي خلقه وأبدعه الخالق ﷻ، وطلب من الإنسان أن يفكر ليكتشفه، ولذلك كانت مهمة العقل البشري سهلة في هذا الجانب. أما في جوانب الحياة الإنسانية الأخرى -مثل الاجتماعية والاقتصادية- فلم يستطع العقل البشري أن ينتج، بل إنه أخفق إخفاقاً كبيراً في المجال الاقتصادي والاجتماعي. وها نحن نرى الأمراض الاجتماعية مثل الإدمان على المخدرات والانتحار والفقر والبؤس وانهيار الأسرة، وانتشار ظواهر الاضطراب النفسي والعقلي تنتشر وتتسع، والإنسان حائرٌ بعقله في مواجهة ذلك.

والفكرة الأساسية هنا، أن الله تعالى أودع في الطبيعة المادية الفيزيائية نظاماً دقيقاً، وطلب من الإنسان أن يكتشفه بعقله، وقد فعل الإنسان ذلك، وها هو يتقدم على نحو رائع في هذا الجانب، وما نشاهده من ثورة "تكنولوجية" هائلة دليل على ذلك. أما في جوانب الحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية فقد أودع الله في الدّين أنظمة دقيقة معززة بقيم تساعد الإنسان على بناء نظم اقتصادية واجتماعية ناجحة إذا اهتدى بهديها، سواء على مستوى نظام الأسرة أو أي نظام في المجتمع. ولا أعتقد أن الإنسان بعقله قادر على إيجاد حلول لأنظمته الاجتماعية -وخاصة النظام الأسري- إلا من خلال تطبيق نظام الأسرة في الإسلام. وها هي النظريات تلي بعضها بعضاً في مجال الأسرة، الذي ما يزال في معظم مجتمعات العالم يتفكك ويعتريه الاضطراب والتشويش. وما تساؤل العلماء الأمريكيين في مجال الأسرة: "الأسرة إلى أين؟" "إلا دليل على الحيرة والارتباك في طرح حلول لبناء وصيانة نظام أسري ناجح". ومن هنا، تكاثرت الأفكار مما سماها المسيري "فوضى الفكر" ابتداءً من تفكير الفرد الواحد حتى أعقد الأفكار التي جاءت أنظمة فكرية ونظريات مثل نظرية ماركس وداروِن.

## ٢- أثر فوضى العلمانية في نظام الأسرة:

ويتجلّى هذا الأثر من خلال مسارين، هما: الأول: كيف حدثت الفوضى في نظام الأسرة؟ والثاني: بيان لمظاهر الفوضى في النظام الأسري. إن تبيان

أثر فوضى العلمانية في تفكير الفرد وسلوكه يمهّد الطريق أمامنا لفهم الفوضى على مستوى نظام الأسرة؛ لأن كلا الموضوعين (الفرد والأسرة) ضحايا لهذه الفوضى التي تسببت بها العلمانية.

فقد استخدم الباحثون الاجتماعيون فكرة "النظام الاجتماعي" في العلوم الاجتماعية استعارة من علماء الأحياء في دراستهم للنظام "البيولوجي". إن أي نظام يمتاز بهدف وحدود ونمو من خلال تفاعل أجزائه الداخلية مع بعضها بعضاً من جهة، ومع البيئة الخارجية من جهة أخرى. وتكون العلاقة بين الأجزاء التي يتكون منها النظام "علاقة عضوية" Organic. ومن هنا، فإن النظام ليس تجميعاً لأجزاء، بل هو مجموعة أجزاء تتفاعل مع بعضها بعضاً لتكون نظاماً "بيولوجياً" أو اجتماعياً. وهذا ما ذهب إليه "بين" Payne[1] من أن النظام ليس فقط مجموعة أجزاء non-summativity، بل أجزاء تتفاعل مع بعضها، فمثلاً: التفاعل ما بين أجزاء النظام "البيولوجي" (الكائن الحي) تفاعل عضوي. والتفاعل ما بين أجزاء النظام الاجتماعي (نظام الأسرة) تفاعل نفسي اجتماعي واقتصادي، والتفاعل ما بين أجزاء النظام "الميكانيكي" (مثل السيارة) تفاعل "ميكانيكي". وعلى هذا الأساس، فإن التفاعل في النظام الاجتماعي محكوم بقيم وقواعد قيمية ترشد وتضبط هذا التفاعل على المستويات كافة.

إن عدم فهم موضوع "دوران التغذية الراجعةِ" Feedback Loops في النظام "البيولوجي" عندما تتفاعل أجزاء هذا النظام مع بعضها بعضاً قد أثر في تفكير علماء الاجتماع في فهمهم لفكرة العلاقة العضوية بين أجزاء النظام الاجتماعي.[2] فدوران التغذية الراجعة Feedback Loops أودعها الخالق ﷻ في النظام البيولوجي بحيث يكون هذا التفاعل "بيوكيميائي". وفي المقابل فإن رب العالمين ﷻ قد أرسل في دينه (القرآن والسنة) منظومة من القيم تساعد أجزاء

(1) Mafcolm, Payne. *Modern social work theory*, second ed. Lyceum, Chicago, 1997.

(2) Christopher G. Hudson. "At the Edge of chaos: a new paradigm for social work?", *Journal of social work Education*, 2000, 36,2, PP 215-230.

النظام الاجتماعي، وهو نظام الأسرة، على التفاعل الإيجابي الصحي، حتى تستطيع الأسرة أن تقوم بوظيفتها كما أرادها الله وفق مقاصد الشريعة.

وحين أوقفت العلمانية تطبيق الدّين في مسرح حياة الإنسان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فإنها قد أحدثت اضطراباً وتشويشاً في نظام الأسرة. لقد علمنا مما سبق كيف أثّرت العلمانية على فكر الفرد وسلوكه، وهو الذي يتكون منه نظام الأسرة، وأن الفردية المطلقة، التي تنطوي على الاستقلال الفردي المطلق وتحقيق الذات المطلق والخصوصية الفردية المطلقة، هي التي أثرت في التفاعل المرضي داخل نظام الأسرة. إنّ ما فعلته العلمانية من اضطرابات في فكر الفرد وسلوكه في المجتمع المعاصر، وخاصة في المجتمعات غير الإسلامية جعلت هذا الفرد يجيز الزنا ويجيز اللواط! وإن تعاظم هذا السلوك بوصفه ظاهرة جعل المجتمعات الغربية تقبله. ومثال على ذلك تعديل القانون الكندي عام ١٩٧٢ ليجيز الممارسة الجنسية المثلية ويجعلها مقبولة قانوناً.

وعندما تعاظم التشويش والاضطراب في نظام الأسرة -سواء في نوعها أو تركيبها أو تشكّلها أو نموها- فإن العلماء الاجتماعيين طوروا نظريات جديدة تحاول أن تشرح لنا هذا التشويش Chaos مستخدمين نماذج رياضية لإثبات أن النظام عندما يدخل مرحلة الفوضى والتشويش تكون لديه القدرة على استرجاع النظام بذاته Self-Organizing مستندين إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء. وجاءت نظرية الفوضى Chaos Theory لتقول: إن الفوضى تؤدي إلى النظام، ولكن لا يعود النظام القديم نفسه، بل صور جديدة منه. والمثال على ذلك: ما حصل لنظام الأسرة، فقد كانت الأسرة قبل الفوضى تتكون من زوجين وأولادهما (الأسرة النواة)، وبعد هذه الفوضى التي حدثت لنظام لأسرة النواة، نجد أننا صرنا أمام أنظمة أسرية جديدة، تفسِر الأسرة على أنها أحد الوالدين مع طفل أو أكثر دون زواج، وغالباً ما يكون الذكر "الوالد" غير معروف، وأيضاً ظهر نظام أسرة آخر وهو أسرة المثليين. وإذا ما رجعنا إلى خصائص النظام، فإن من خصائصه أنه يحافظ على طبيعته -وهي ما يشار إليها بالإنجليزية

بـ equilibrium- إن نظام الأسرة في ظل العلمانية لم يعد قادراً على الحفاظ على توازنه وطبيعته، بل نجد أنظمةً أسريةً جديدة بدأت تظهر في المجتمعات المعاصرة، خاصة في المجتمعات الغربية.

### ٣- أثر الدّين في الحفاظ على نظام الأسرة:

قدّم الدّين مجموعة واسعة من أنظمة القيم الأسرية ليضبط بها تفكير الفرد وسلوكه، وهذه المجموعة من القيم التي بيّنها القرآن والسنة جاءت لتفعيل دور العقل إلى أقصى درجة ممكنة، شرط أن لا يتجاوز مقاصد الشريعة. وبناءً عليه، فإن على الفرد عندما يفكر ويسلك أن يوازن بين مصلحته ومصلحة أسرته ومصلحة المجتمع، ولذلك، فإن الدّين جعل الفردية نسبية منضبطة لمنظومة قيم واسعة، تمس في تفاصيلها تفاصيل حياة الفرد المسلم كافة في أسرته، فالدّين جاء ليساعد الفرد -وهو يتفاعل في أسرته- على استخدام عقله في ضبط عاطفته وتهذيبها، وجاءت القيم لتساعد الفرد في اتخاذ قراراته في حالة الزواج أو في حالة الطلاق.

واستناداً إلى ذلك، وضّحت منظومة القيم التي جاء بها الدّين الإسلامي مفهوم الأسرة بوصفها نظاماً اجتماعياً له هدف واضح، كما وضح الدّين من خلال القيم التي طرحها كيفية تفاعل أجزاء نظام الأسرة (الزوج والزوجة والأولاد)، ووضّح الدّين الحقوق والواجبات لجميع أفراد الأسرة قبل الزواج وعند الزواج، وكيفية القيام بهذه الحقوق والواجبات بناء على منظومة من قيم الكرامة والعدل والاحترام والمودة والرحمة، والإحسان والصبر وكظم الغيظ والتسامح والعفو...، وقد فصّل الدّين في طرحه لمنظومة القيم لتنظيم التفاعل داخل أجزاء نظام الأسرة لتشمل الطلاق والميراث، وفي قيام النظام بوظيفته داخلياً وخارجياً، وأرسى قواعد من قيم تسمح لهذا النظام الأسري بالنشوء والنمو والتفاعل مع كل متغيّرات البيئة الخارجية، بطريقة تساعد النظام على المحافظة على طبيعته وتوازنه. (انظر الشكل رقم ٢).

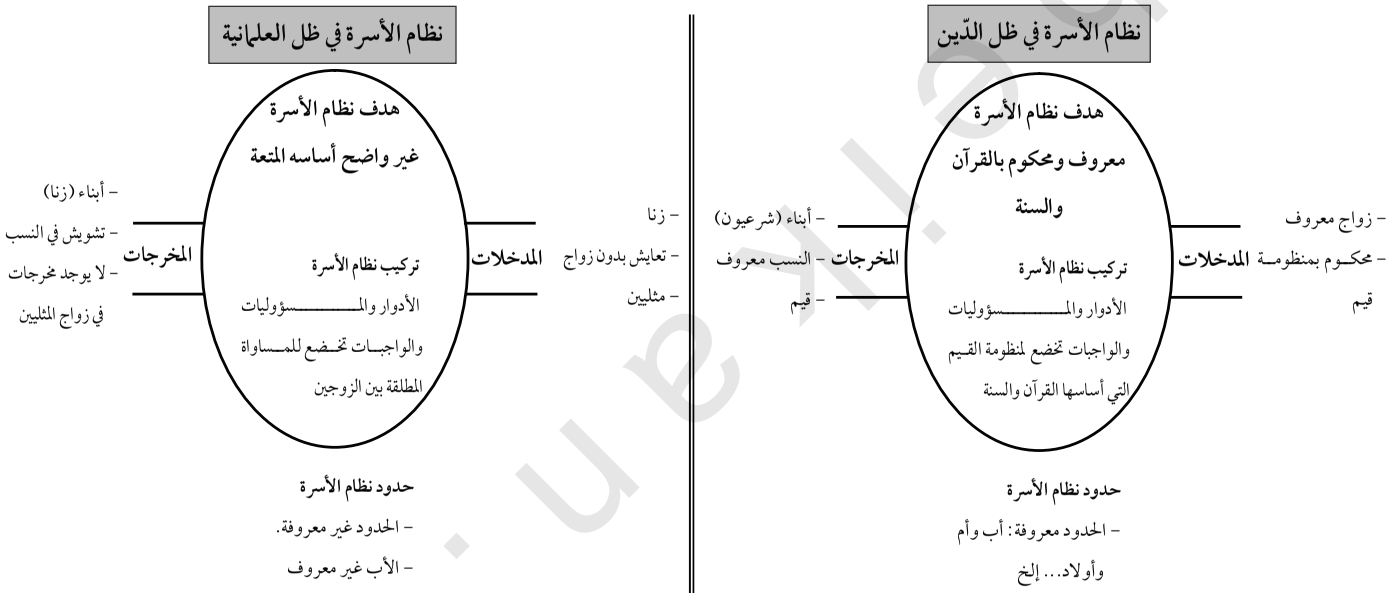


هذا النظام الأسري ينشأ وينمو ويتغيّر وهو محافظ علىٰ طبيعته وتوازنه

هذا ليس نظاماً، بل إنه فوضىٰ في نشأة النظام ونموه وتغيّره، وحدوده غير معروفة، وهو في حالة عدم توازن

شكل (٢) نظام الأسرة في ظل العلمانية وفي ظل الدّين

**خاتمة:**

إن التغيّر الاجتماعي الذي أحدثته الثورة الصناعية، وما خلقته من قوى اجتماعية واقتصادية وثقافية، تفاعلت مع بعضها بعضاً في إطار العلمانية، لتعمل على تغيير بناء المجتمع وتركيبته بكاملها، خاصة مع ثورة تكنولوجيا المعلومات التي حدثت في نهاية القرن العشرين وسرّعت من التغيّر الاجتماعي. لقد شكل كل ذلك البيئة التي تغيّر من خلالها نظام الأسرة.

وناقش هذا البحث "العلمانية" التي تعني عدم تطبيق الدّين وفصله عن مناحي حياة الإنسان والمجتمع. وناقش العلمانية بوصفها عملية وليست فكرة أو مجموعة أفكار. وكانت مناقشة العلمانية تمهيداً لبيان تأثيرها في الأفراد والأسرة، وما أحدثته من فوضى في فكر الإنسان وسلوكه في المجتمعات المعاصرة، وقد شرح "ميكانيزم" التغيّر الذي أحدثته العلمانية على صعيد الفرد (فكراً وسلوكاً). كما تم تطبيق نظرية النظام في شرح التغيّر الأسري، وأوضح مدى الخلل والفوضى التي أحدثتها العلمانية في نظام الأسرة، في خصائصه وتشكله، ونموه.

أظهر البحث بأن العلمانية، التي هي عدم تطبيق الدين، قد تسببت بأن يغدو سلوك الفرد وفكره حرّاً بالمطلق ولا يحدّه شيء، في حين أن الدين، بما وضعه من نظام قيم دقيق، جعل سلوك الفرد وفكره حرّاً بشكل نسبي، بسبب نظام القيم الذي يخضع له. وقياساً على هذه النتيجة فإن التغيّر الأسري والمجتمعي أصبح فوضوياً بسبب سلوك الفرد وفكره الحرّ المطلق.

ويوصي الباحث بضرورة تدعيم تطبيق الدين ليكون إطاراً ثقافياً للمجتمع، وأن يتم التوسع في تطبيق نظام القيم الديني على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.